تدمر في الوسط الاقتصادي والسياسي في القرن الثامن عشر قبل الميلاد*

فيصل عبد الله

جامعة دمشق ـ سورية

تقع مدينة تدمر وسط واحة في البادية السورية الواسعة، والممتدة من منعطف الفرات حتى وادي سرحان في شمال شبه الجزيرة العربية. وعندما يصل الفرات الى حلبيا (زنوبيا)، ينعطف بإتجاه بابل مشكلاً بذلك فاصلاً طبيعياً الى الشرق من جبال تدمر. يحد بشكل غير واضح، الجبهة المتوسطية لجبال تدمر.

هذا وتبقى مدينة تدمر مرتبطة اقتصادياً وثقافياً بكل من حمص وحماه وحلب غرباً وشمالاً، وبمدينة دمشق وسهل حوران جنوباً. وقد استفادت من موقعها الاستراتيجي اعتباراً من الألف الثاني ق.م. وتشير نصوص عُثر عليها في ماري وكلتبه Kultépé وايمار Emar الى الحياة البدوية في المناطق التدمرية؛ هذه الحياة لم تمنع من التعامل مع المراكز الحضرية على الفرات الأوسط، والمساهمة بصورة نشطة بعقود تمت بين سكان هذه المراكز أو المدن.

وذكرت الحوليات الاشورية التدمريين، في الألف الأول ق.م، من بين السكان البدو الذين اصطدمت معهم القوات المتفوقة للملوك الاشوريين. من جهة أخرى ان معلوماتنا قليلة جداً عن تدمر نفسها قبل العصر الهيلينستي، حيث ستغدو مسيطرة على تجارة القوافل بين البحر المتوسط والهند[1].

كان شاركاليشاري خليفة نارام سين الاكادي قد وصل الى جبل بشري Bisri وهو يطارد الأموريين، وبذلك فإنه أول ملك أكادي يحدد المناطق لأصول هؤلاء السكان، وذلك في جبهة تمتد من البادية السورية الشرقية الشمالية الى غربي الفرات وشمال تدمر. ونلاحظ أن الوثائق المكتوبة والآثار المادية المؤرخة في الألف الثالث ق.م تتوافق مع ظهور الأموريين وتسربهم الى سورية وبلاد الرافدين. وعندما ظهروا على صفحات التاريخ فقد كانوا أصحاب السلطة في تلك البلاد أيضاً. ونعلم أن هذه العناصر الجديدة قد تمثلت الثقافة السومرية ـ الاكادية، وأن الوثائق المكتوبة العائدة للعصور الباكرة وحتى سلالة أور الثالثة، تذكر هؤلاء السكان الجدد القادمين من الغرب والذين يتحدثون لهجة أكادية أمورية «سامية» غربية، وهي لهجة قد استخدمت في سورية، وسُجلت الى جانب لهجات أخرى، كالأوجاريتية[2].

لقد كانت طبيعة العلاقات بين سورية والرافدين، زمن سلالة اور الثالثة اقتصادية أولاً، ولكن لا توجد شواهد مباشرة على ذلك، فقد سعى ملوك اور الثالثة، بالتأكيد، الى إقامة علاقات اقتصادية بهدف تحقيق النفوذ السياسي. هذا ولدينا بضع شواهد على الأوضاع الاقتصادية التي كانت سائدة بين المدن السومرية والسورية في نهاية الألف الثالث، وفي عصر جوديا ملك لاجاش خاصة، حيث تشير كتاباته الى تجارة تمتد من البحر «الأعلى»، الى البحر «الأدنى». وقد

ذكرت جبال الأمانوس كمواقع لأشجار الأرز، التي استعملت كأخشاب بناء في جنوب بلاد الرافدين، كذلك الأمر بالنسبة الى أخشاب مدينة أورسو وجبل "أعلى البلاد" أي إبلا. وقد استوردت الحجارة من جبل بشري Bisri, Basalla جنوب تدمر، والرخام من جبل تدانوم الأموري Tidanu[3] ويظن أن حملة جوديا التجارية قد بدلت طريقها من أعالي الفرات الى شمال سورية قرب ايمار (مسكنة اليوم). من جهة أخرى، فإن العلاقات بين أور وقطنة وجُبلا Gubla (جبيل في لبنان) تشهد على وجود طرق تجارية أخرى، تؤدي الى فلسطين. هذه الطرق هي التي أوصلت النفوذ السومري غالباً، الي الجنوب مروراً بالبادية السورية ومناطق تدمر ثم دمشق. وربما، ستؤكد الأبحاث والحقائق الحديثة في تدمر، ذات يوم، هذه الاحتمالات التي تؤيدها تلك الشواهد.

هذا، وتدعونا العلاقات المتطورة بين الرافدين وسورية في مجال التجارة، وعبر تلك الطرق الجنوبية الى التفكير أن العلاقات التقليدية بين لبنان والرافدين ترجع الى هذا الوقت المبكر، حيث أن لبنان كان مصدر أخشاب الأرز، وأن تدمر كانت المحطة التجارية للقوافل المتجهة نحو قطنة ولبنان، وينطبق هذا على ما جاء في أدب الخلق والتكوين البابلي القديم، حيث أن غابات الأرز قد حدد موقعها في مناطق لبنان وحرمون[4].

وبإختصار، فإن الموقف السياسي في سورية، في الألف الثاني ق.م، يسمح لنا، وفق المعلومات المصرية والإبلائية، بتسجيل بعض الملاحظات: أولها أن سورية، كانت مؤلفة من عدد من الوحدات السياسية المحكومة من قبل عواهل أموريين غربيين، ينحدرون من قبائل بدوية سورية، قطنت في مناطق تدمر وجبل بشري بصورة خاصة. لقد تشكلت هذه الوحدات واستقرت في مدن هامة أو مجموعات متفرقة، لم تتوصل أبداً الى تشكيل وحدة سياسية شاملة. ويُفسر لنا هذا دور سورية، والمدن الوسطى؛ حيث كان دوراً تجارياً واقتصادياً وسياسياً، ولكنه لم يكن قوة عسكرية تفرض نفسها على مناطق أخرى. ونفهم هذا الدور جيداً اذا علمنا أن سورية، كانت غنية بالمواد الأولية. فما من شك اذاً، أنها لم تكن بحاجة الى تجهيز حملات للبحث عنها. وهكذا، وإن كنا لا نستطيع الحديث عن وحدة سياسية سورية في ذلك العصر، فإننا نستطيع الحديث عن اقتصاد سوري، هذا الاقتصاد الذي كان يتحدد من خلال علاقاته التجارية مع بلاد الرافدين، ومصر، وبلاد كانيش في الأناضول، في وقت متأخر في الدور الآشوري القديم، عندما امتدت طرق الرافدين الجنوبية الى الشمال[5].

وللأسف، أن معلوماتنا قليلة جداً عن دور تدمر في بداية الألف الثاني وخاصة في عصر ماري. وتسمح لنا بعض المعلومات تلك أن نقول أن تدمر كانت واحة ومركزاً للبداوة. فقد ذكرت كإسم جغرافي في النصوص الاشورية القديمة من كلتبه Kultépé فكان بذلك أول اتصال تجاري بين تَدْمر/تَدْمُر والأناضول (E. Bilgic, AFO 15, 1945-51, 36)، ويذكر الشيء نفسه في نصوص ماري (*ARM* V23, 16, 20) حيث أن تدمر هي موطن السوتو Sutû، وهم امورويون وبدو في الأصل. ويدل تقرير الكونت دومنيل دوبويسون عن حفائره في معبد تدمر أن كان هناك مدينة امورية، (قد بنيت من قبل ساميين غربيين في البادية السورية). ويذكر اسم مكان آخر هو نَسالا Nas'la في وثائق ماري (*ARM* V23, 17) ويتطابق هذا الاسم مع نازالا Nazala الهيلينستية الرومانية، والتي كانت تقع قرب القريتين الحالية بين تدمر ودمشق (وفق جورج دوسان في *ARM* VS. 130; *Akkadica* supp. I p. 257). ومن الواضح أن مواقع هذه الأسماء الطبوغرافية هو على طريق التجارة المؤدية الى فلسطين عبر دمشق.

فإذا أردنا أن نحيط بدور تدمر ومنطقتها في عصر ماري، فمن الضروري موضعتها في اطارها الجغرافي والسكاني. فيجب أذاً أن نتطرق الى المسائل المطروحة على المؤرخ، وهي العلاقات بين الحضر والبدو خاصة. وتقدم لنا محفوظات ماري وثائق غنية بهذا الخصوص. وقد سبق أن قام ج.ر. كوبر J.-R. Kupper بجمع ونقد الشواهد المتصلة بالبدو، بصورة دقيقة تلك التي قدمتها نصوص ماري المنشورة قبل عام ١٩٥٧، وذلك في مؤلفه بعنوان: «البدو في بلاد الرافدين زمن ملوك ماري» (*Les nomades en Més-*

(opotamie au temps des rois de Mari ومنذ ذلك الوقت، فقد نشر عدد من الدراسات حول هذا الموضوع[٦] وهي تلفت الانتباه الى المشكلة الأساسية وهي العلاقات بين الحضر والبدو في سورية والعراق القديمين. وتعالج هذه المقالات بالتتابع التجمعات البدوية الرئيسة في محفوظات ماري مثل: الحنانيين واليمينيين والسوتيين، والاموريين وجماعة الخبيرو. وجدير بالملاحظة أولاً، الاشارة الى أن الاموريين لم يظهروا كبدوٍ في محفوظات ماري؛ بل سبق وأن تحضروا واستقرت سلالات منهم في سورية والعراق. كما ذُكر السوتيون في نصوص ماري، وهم الذين سبق ذكرهم في نصوص أقدم وظهروا كنمط من البدو والغزاة، حيث أن كلمة سوتو، كانت مرادفة لبدو أحياناً[٧]. وتشير احدى رسائل ماري الى أنشطتهم التي تدل على فخارهم، واعتزازهم: وهو ما ورد في رسالة نشرها جورج دوسان والمشار اليها أعلاه: وهذه الرسالة قد وُجهت الى يسمخ أدو، نائب الملك الاشوري في ماري بواسطة أحد موظفيه، المدعو تريم سكيم Trim-sakim. وتحدثنا الرسالة عن عملية منطلقة من قلب البادية العربية –السورية، بسبب ورود اسم تدمر ومدينة أخرى تدعى ناسالا Nasalâ (القريتين حالياً على الطريق بين دمشق وتدمر). وأخيراً مدينة قطنة في منطقة حمص. أما القسم الذي يهمنا في هذه الرسالة (*ARM*, V, 23)[٨] هو التالي:

«لقد تجمع جزي زانوم وأبي ساري وخمي اوركو مع ألفين من السوتيين[٩] كي يؤلفوا جيشاً (؟) ثم إنهم انطلقوا لغزو البادية في منطقة قطنة. ولكن سبق وقام بضع ستين من السوتيين بتشكيل عصابة وانطلقوا لغزو تدمر ونازالا؛ ولكنهم عادوا صفر اليدين، بينما قتل التدمريون رجلاً من السوتيين. هذا النبأ المتعلق بالسوتيين قد وصل هنا، وأنا أرسله الى مولاي».

لا تسمح المعلومات المستقاة من رسائل ماري والتي تطرقت الى تدمر زمن السلالة البابلية الباكرة، بخط لوحة متجانسة عن تاريخها وعلاقاتها مع المدن المجاورة، وخاصة مع قطنة الواقعة على حافة البادية العربية السورية، والتي كانت أكثر ازدهاراً من تدمر. ولكن، نلاحظ وفقاً للرسالة هذه، أن المدن الثلاث قطنة وتدمر وناسالا قد تعرضت لهجمات البدو السوتيين. إن واقع تدمر الذي حدا بأحد الموظفين بإعلام سيدة بهذا الهجوم، يدل على أن نائب الملك الآشوري في ماري، كان مهتماً بالأمر، ولكن ماذا كان جوابه؟ وبماذا كان يهتم؟ وما هي العلاقة القائمة بينه وبين هذه المدن؟ فلا يوجد لدينا أية عناصر للاجابة عن هذه الأسئلة، ما خلا هذا النص الصغير الذي ذكرناه. وبمعنى آخر لا يوجد بين أيدينا اليوم أي نص سوى الرسالة السابقة.

وهناك عنصر آخر يوضح دور تدمر، ألا وهو وجود علاقة وطيدة بين مملكتي ماري وقطنة، حيث نلمس هذا في الرسائل المتبادلة بين الطرفين. وتفيدنا معلوماتها بتحديد طرق التجارة آنذاك، وهي الطرق التي لم تتبدل حتى يومنا هذا:

- يفصل ما بين قطنا وماري الواقعة على نهر الفرات، بضع ثلاثمائة وخمسين كيلومترا؛ ويمر الطريق الأقرب عبر البادية بمدينة تدمر الواقعة في منتصف المسافة تقريباً؛

- وهناك طريق ثانية معروفة، ولكنها أطول بكثير، حيث يجب صعود وداي الفرات حتى مسكنة/ أي ايمار القديمة ثم الوصول الى حلب، ثم التوجه جنوباً الى قطنة مروراً بحماه، والطريق المركزية.

- وتمر الطريق الثالثة بين الطريقين السابقين مخترقة البادية اعتباراً من توتول عند ملقتى البليخ بالفرات، ثم يتجه نحو الرصافة، ثم السعن ثم سلمية وأخيراً قطنة.

ويبدو أن البادية السورية لم تكن مستحيلة الاختراق من قبل القوافل والمبعوثين في ذلك الزمن. حيث نعلم من خلال رسالة من سمسي–أدو ملك آشور مرسلة الى ابنه ونائبه في ماري، أنه كتب الى «مدينة ترقا» من أجل تقديم مؤونة عشر أيام الى احدى القوافل مما يسمح لها بالوصول الى قطنة. فإذا قبلنا بأن امكانية قطع مسافة خمس وثلاثين كيلومتراً في اليوم، فهذا يعادل الزمن اللازم من أجل قطع المسافة ثلاثمائة وخمسين كيلومتراً (دوسان المقال السابق الذكر) التي تفصل ماري عن قطنا مروراً

بتدمر[10]. وعندما كان ملك آشور، الموجود في شباط- انليل / تل ليلان - شمال سورية، عادة، يكتب الى قطنة، فإنه كان يرسل برسائله الى ماري أولاً، ثم يطلب ايصالها الى الأماكن المطلوبة « بالطرق العادية »، وبدون شك، من طريق البادية (ARM 1, 11) ووفق رسالة دوسان، هناك رسالة أخرى من سمسي أدو الى ابنه تشير الى طريق البادية هذا. ولكن كما لاحظنا، فإنه يوجد طريقان عبر البادية.

وكان على القوات الاشورية أن تعرج على ماري وقطنة، برفقة حاشية الملك الاشوري، الذي يوجه نصائحه الى ابنه حول تنظيم رحلته. فهو يطلب اليه أولاً، الاسراع باستطلاع مصادر المياه، وأن يوفد اليه الرجال الذين قاموا بالعملية للاستفسار منهم والتأكد من أن طريق الحملة قد أعد بكل العناية الممكنة (ARM 1, 1, 85, 11. 5-14) ويفهم من عملية استطلاع مصادر المياه أن تحضير العملية يتم في البادية[11]. ونستطيع ان نتصور أيضاً أن تجميع القوات يتم في ترقا ثم تصعد بمحاذاة الفرات الى توتول، حيث يبدأ الطريق الثاني باتجاه قطنة عبر البادية.

لقد تم تحقيق عدة رحلات بين ماري وقطنة عبر البادية، ليس عن طريق تدمر وحسب، ولكن عبر الطريق الأخيرة، المناسبة للذين يهبطون من جهة البليخ.

هذا وتتحدث النصوص عن اختفاء القطعان؛ فقد كتب ملك مدينة قطنة الى يسمخ أدو نائب الملك في ماري: « فيما يتعلق بالقطعان، فلم أتوقف عن الكتابة إليك منذ أيام عديدة. ولم يتوقف جماعتك عن الاجابة بما يلي: « أجل، ستطلع القطعان ». ولكن القطعان لم تطلع. والآن، قد أقسمت بالله من جديد، بل بعينيّ ما دامتا حيتين!، فلم أعد أثق بهذا! أما الآن فاطلع أنت مع القطعان، واطلعْ معك ابنتي »[12].

لقد كان للاشوريين علاقات مميزة مع قطنة، وبرهان ذلك قد ورد في عدد من رسائل ماري بوضوح؛ حتى أن اشارات سمسي ادو الى مغامرته العسكرية في لبنان تدفع للاعتقاد بأن تلك الحملة قد تمت بموافقة اشخي ادو ملك قطنة.

ويمكننا أن نكتشف، بفضل وثائق العصر وخاصة ماري، عدداً من الممالك السورية الهامة، التي كانت تستخدم تدمر كواحة ومحطة للقوافل المتجولة بين بلاد الرافدين وسورية الشمالية والجنوبية. ويحول نقصان المعلومات المكتوبة بيننا وبين تأكيد هذا الدور. ولكنه سيغدو واضحاً خلال العصور اللاحقة، وسيبلغ القمة في العصر الروماني.

لقد تكونت هذه المدن بعد استيلاء الاموريين على السلطة في سورية وبلاد الرافدين، وخاصة في ماري وحلب وقطنة وكركميش. كما يوجد على الساحل مدينة اوچاريت التي ازدهرت في عصر البرونز الأوسط، كما أظهر ذلك التنقيبات الأثرية. وقد لعبت هذه المدن دوراً هاماً بفضل خصوبة أراضيها، وموضعها على الممر التجاري نحو الجنوب ونحو الشمال[13]. إنه لمن الواضح أن طريق الشمال يتقدم حتى الأناضول المركزية، وأن طريق الجنوب يمر بتدمر، ويتابع حتى دمشق ثم يتجه نحو حاصور في فلسطين أو أنه يتوجه مباشرة الى لبنان.

إن نصوص ماري لا تعالج العلاقات السياسية بينها وبين مناطقها وحسب، بل تعالج قسماً كبيراً من سورية. فمن الواضح أن الاتصالات السياسية والاقتصادية قد سبقت عصر ماري، وكانت تمر عبر الطرق نفسها، أي من ماري الى حلب عبر ايمار شمالاً، ثم نحو قطنة مروراً بتدمر.

هذا وترينا نصوص ماري مصلحة يمحاض / حلب في مناطق الرعي في البادية السورية وخاصة فيما يتعلق بقطنة. ويبدو هذا من خلال شواهد منذ عصر سومو-ايبوخ، وتوضح هذه الشواهد أيضاً، واقع العلاقات بين حلب والقبائل البدوية في المنطقة (ARM V, 15).

نستطيع أن نستنتج من كل هذا، أن الشروط الاقتصادية لسورية من جهة، والموضع الجغرافي لمدينة تدمر من جهة أخرى قد سمحا لها أن تلعب دوراً تجارياً، وأن تكون مركزاً هاماً بالنسبة للبدو، هذا المركز قد تسلكه الأموريون منذ نهاية الألف الثالث قبل الميلاد. من جهة أخرى، فإننا نعرف مجموعة

أخرى من البدو وهم السوتو Sûtû الذين ورد ذكرهم في المنطقة منذ عصر محفوظات ماري. وتسمح لنا هذه الوثائق بفهم الوسط السياسي والاقتصادي الذي يحدد العلاقات بين الممالك الأمورية التي تشكلت واستقرت في ماري وحلب وقطنة، وكذلك القوى الأخرى التي كونتها مدن سورية الرئيسة في الألف الثاني ق.م، حيث كانت رهن الصراع بين القوى الرافدية والأناضولية والمصرية. إننا نعلم كيف أن الاسباب الاقتصادية قد قادت شروكين الاكادي المعروف باسم سرجون وحفيده نارام سين نحو البحر الأبيض المتوسط عبر طريق الشمال أي عبر ابلا وأرمان، حلب(؟). ونرى يخدون ليم بعد أربعة قرون أي في نهاية القرن التاسع عشر ق.م، يعلن أنه قطع الأخشاب من الأمانوس، حيث لم يفعل ذلك أحد منذ وقت طويل، وذلك رغم معارضة قوية من قبل سومو ايبوخ ملك يمحاض. وسيصطدم شمشي أدو بقوة حلب فيما يلي من الزمن أيضاً، وسيبحث عن جميع الفرص كي يتحالف مع قطنة، وهي المدينة الخصم لحلب، وتقع الى جنوبها في المركز السوري وبالقرب من لبنان. وبما أن شمشي أدو قد أعلن وصوله الى تلك البلاد، فإننا نفترض أنه الأول الذي قاد حملة عبر البادية للحصول على أخشاب الأرز من لبنان، وقد سلك الطريق الأقصر وهو الذي يمر بين تدمر وقطنة، مستفيداً من الخصومة بين هذه الأخيرة وحلب (GS1 .p. 115)

وهكذا فإذا لم تكن تدمر مركزاً اقتصادياً وسياسياً هاماً، فقد لعبت دوراً كبيراً بسبب امتلاكها لمراع واسعة، كما كانت نقطة تجمع واتصال بالنسبة للبدو، وخاصة بالنسبة للسوتيين الغزاة الذين يعيشون على الغزو والقنص في البادية العربية السورية، التي كانوا أسيادها. وقد أصبح هذا الدور الاستراتيجي على الطريق التجاري أكثر أهمية مع التطور في وسائط النقل. والتي ترتبط بظهور وسائط نقل جديدة وهي الحصان في القرن الثامن عشر قبل الميلاد والجمل اعتباراً من القرن الثالث عشر قبل الميلاد. ويؤرخ منذ ذلك العصر مكانة تدمر الهامة على الطريق التجاري الذي يصل بين أفغانستان وجنوب شواطئ المتوسط أي فلسطين ولبنان ومصر.

وفي الختام فإن المحفوظات الملكية في ماري قد أظهرت أن انتقال البضائع في المنطقة قد بلغ في زمنها (القرن الثامن عشر وما يليه بقليل ق.م) مبلغاً لم يعرف من قبل. وقد شمل هذا الانتقال الممتلكات الروحية والمادية بين الخليج العربي وجزيرته دلمون والبحر المتوسط. وقد كانت ماري وبقية المدن المذكورة آنفاً محطات بين أيدي التجار الذين يرتادون طريق القصدير الذي يذهب من آسيا الداخلية الى البحر المتوسط، وذلك قبل أن تصبح واقعة على طريق الحرير[١٤]. هذا وتتحول تدمر في العصر الروماني الى منارة لجميع مدن الشرق الأدنى.

* راجع التعليقات والمراجع في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي.